

بين الحقيقة والخيال

- ٦ -

الموسيقا في الأدب العربي

«عرض ونقد»

للمؤلف عبد اللطيف المغربي

المفتش بوزارة المعارف

وفي أوبة من رحلة طويلة تستغرق بياض النهار، جلست في مكان من
القطار فريدا، أنفني عن النفس وحشة العزلة ووعثاء السفر بضروب من الوسائل:
فتارة أردد النظر في كتاب، فأروض الذهن في شعاب من التفكير وأودية
من الخيال، وأهيم في آفاق روحانية ندية أجدي على النفس من نغمة الطيب
الذكي، وأروح من بسملة الأمل الوضاء — وتارة أطوى الكتاب وأصبح
في عالم الذكريات، وهو عالم يتملك في مثل سرعة الوهم إلى شاطئ الماضي
الحضيم، فيقفك على صور غابرة من الحياة عابسة وباسمة، تفعم نفسك بضروب
من اليأس الممض أو الارتياح العميق — وحيناً أسرح الطرف من نافذة
القطار في مروج خضراء ذات وهاد ونجاد، وأشجار وأنهار، وغياض ورياض،
وقرى ودساكر، وظلال وارقة، وزروع ناضرة، وبين كل أولئك صنوف
من الحيوان متشورة، وطوائف من الناس غادية ورائحة: منهم الطروب المرح

الذى يرسل غمامه الساذج حرا طائفا في جوف ذلك الفضاء الجميل ، فيزيده رواء على روائه ، وكأنه يشارك الطيور المتقلقة الضاربة في كل مذهب من هذا الفضاء في شدوها ؛ شكراً لله على ما وهب من نعمة الحياة ، وقوة الخصب ، ومنايع الخير ، وفيوض الرحمة والبركة ، والجمال الساحر ، والحسن الأخاذ في ذلك الريف المصرى القديم — ومنهم البائس المعتر الصامت كأبى الهول ، قد خطت السنون وتتابع الحن على وجهه سطورا ناطقة بما يحمل من أعباء ثقيلة أنهكت قواه ، وذهبت ببشره وأمله ، فهو صامت مستكين ، يرمقك بعينين ساجيتين تعرف فيهما طول الصبر والأناة ، وقوة الإيمان والرضا بقضاء الله وقدره .

ولقد حانت منى النفاتة عارضة والقطار مسرع في طريقه ، فرأيت طائرا يجارى القطار في سرعة وجهه ، فحينا يبلغ مستوى النافذة ويصفق بجناحيه على زجاجها ، وحيناً ينال منه الإعياء فيتخلف ، ولكفى كنت غير آبه لما أرى ، فقد قيد سمعى وبصرى وحسى ما أنا فيه من وحدة ووحشة ، ولما أدرك القطار المحط حفل المكان برجال تلوح عليهم سمات الفضل ، وشارات الثراء والنبل ، فطفق بعضهم يتحدث إلى بعض في كثير من الغبطة والبهجة ، وأنا صامت ممسك عن الخوض معهم في فنون الحديث الذى ينجذب ويجذب ، ويسمو ويهبط — وفي الحق أنى أنست بالقوم وعددت ذلك من الفرص المواتية أستعين بها على قضاء يومى الطويل ، فإن للوحدة معان حائرة تغمر النفس ، وتلقى عليها ظلالاً من الهدوء والانقباض والاستكانة والتفكير المتتابع ، ولقاء الناس والتفرج بحديثهم مما يقشع هذه الظلال ، ويرسل النفس على صفائها ، ويعيد إليها ما ألوفها من مرح ونشاط .

ولقد أثار انتباهى رجل في المجلس آثر الصمت وجعل يدير فى الحاضرين عينين براقين ، يشع منهما نور الذكاء والفطنة ، فهبته ووقع فى نفسى الإجلال

له ، وحررت في إنصاته للحديث وترفعه عن الماضي فيه . وودت أن يخرج عن صمته فأرى قدرا من كياسته وفضله وثقافته — ودأل في الانتظار لأمره حتى تفتحت آفاق جديدة للنقاش دفعتني إلى مجاذبة القوم أطراف الحديث . والرجل الصموت مامع في صمته مسترسل في تحفظه ، ولما حى وطيس الجدل وطغنا النشاش ألقيت منه تحفزا إلى دخول المعركة ، وما لبث غير قليل حتى رأيته يعالج الحديث بصوت أجش لاعهد لي به من قبل في أناة وصدق منطق واستقامة فذكر ، مما حفز القوم إلى الاحتفاء به والإقبال عليه . وتنزل الكلام حتى انتهت دورته إلى فأدليت برأى ، فما كان من الرجل إلا اعتدال في مجلسه وتقبض للهجوم وانطلاق في الحديث وتحامل شديد في جرأة وصلابة . فزايلى ما كنت أضمرت له في نفسى من تقدير وإجلال ، وعجبت لهذه المفاجأة الطارئة التي غيرت نظام الحديث ، وأبحت لنفسى أن ألقى هذا العدوان بشيء من المعارضة والزياد الحسن عن الرأى ، ولكن ذلك لم يجد نفعا في وقف تلك الحملة الشديدة التي شنها ذلك المعارض اللسن على . فزددت في نقاشى حدة وافتحمت سياج الهبة بيننا حتى بدت الخصومة واضحة قوية ، وانتهى الحديث إلى غايته ثم انقطع . ولذت بالصمت والصبر الجليل على ما نالني في هذا اليوم الذى كنت أرجو معينا عليه ، فوجدت معينا له على إرهاق وإيلامى ، وساد المكان صمت طويل رائع لما انتهى إليه الحديث من جفوة وتقاطع . وكان نجوى النفوس سفير بين القلوب يحثها على التزام الهدوء والسكوت . فلا سبيل إلى الألفة والوثام .

وكان القطار قد باغ بنا محمدا جديدا فكان مما رجوته أن يفارقني هذا الرجل الذى أثار غضبي ، ولكن إرادة الله الغالبة . فينصرف الناس جميعا ويبقى الرجل . يريد المرء أن يعطى مناه ويأبى الله إلا ما يشاء .

ففرغت إلى كتابى أتعالي به ، وهذا الجليس يرميني من حين إلى حين بنظرة

وادعة لا أثر فيها للغضب ولا الجفيرة . فرأى من نفسى لديها فى الخصومة
وتسامحه . وإسفافها إلى مستوى الغرائز الانسانية من غضب ونقمة ، وإعراض
وجموح ، وتساميه عن كل أولئك وأخذ به الخلق الحسن مما يندر أن يكون
منهجا لإنسان . فعدت إلى إكبار الرجل ورضت نفسى على الخطئة المثلث الجامعة
لخلال الخير والبر ليكون لى حظ من ذلك السمو الذى رأته .

وماهى إلا لحظة حتى بدأ الرجل يعتذر عما فرط منه فى كثير من الأسف
والخجل بصوت هادى عذب ، ولاحث على ثغره ابتسامة مشرقة دلت على
دخيلة نفسه الصافية . فذكرت أنى أعرف الصوت وصاحبه ، وكأنه علم هذا
منى فرنا إلى يتحسس ما تجيش به نفسى ثم قال : إن لى من حرمة الصداقة
وسالف التعارف ما هو خلى أن يطعمنى فى رضا صديق وعطفه إذا بدرت
منى بادرة كدرت صفو المودة . ولم أقصد بما لا قيتك به من تحوير لصوتى
وإغراق فى نقاشى وانحراف عن طريق - سوى إرهاف حسك ، وإيقاظ فكرك .
وطالما أعجبت بتفكيرك ومنطقك إذا غضبت للحق ، وصلت فى ميدان النقاش
فلم أتمالك نفسى من الدهشة والطرب أن صحت « أنت صديقى العصفور ؟ »
فقال : « نعم » فقلت : وما جاء بك فى مثل هذا اليوم ؟ فقال : إن لقيتنا رحلة إلى
هذه البقاع فى زمن الحصاد ، وكنت على مقربة من القطار فلما لمحتك أحبت
أن أحظى بلقائك ومبادلتك الرأى ، فقد طأ شوقى إلى حديثك . فشكرت له
حسن عنايته بى . وبدأنا الحوار

العصفور - أعجبنى ما قد سقته فى مقالك السابق وسررت من دحضك
بعض المظالم التى لحقت بالأدب العربى ، وأود أن تزيدنى من هذا النوع فإنه
طريف مفيد .

أنا : من هذه المظالم ما يعاب على الأدب العربى من الموسيقى الشائعة فى
نسجه ، وأن ذلك من الزخرف والصناعة التى يراد بها التأثير فى النفس

بوسائل مصطنعة ، فالأديب العربي يؤثر في الفكر بصناعته وموسيقاه . على حين أن الأديب اليوناني واللاتيني يؤثر بوساطة الجمال الخالص والفكرة القوية المترنة — والمراد بالموسيقا في الأدب الائتلاف والانسجام في صوغ الكلام وتأليفه على أوضاع حسنة تكسبه جرسا ورنينا في الأذان ، فيجد السامع لذلك من الخفة والروعة ما يجده سامع النغم الموسيقي من النشوة والطرب .

ونحن لا ننكر الموسيقا في أدبنا واحتفاء بها والحاجة في الإغراق فيها ، والذي ننكره ونعجب منه أن تعد من عيوبه وأسباب قصوره عن غيره من الآداب العالمية — وهذا أشبه بازدرائك للجميل لأنه جمع أسباب الجمال وأن تأثيره بهذه الأسباب في النفوس منقصة له . وهذا غريب .

إن هذه اللغة مطروعة ذات خصائص ميزها الله بها على سائر اللغات ، ولقد جعلت من محاسنها تلك الأوضاع الموسيقية لنزيدها قوة على قوة في التأثير . وروح الأدب — العاطفة — التي يزيدها الإيقاع يقظة واحتفالا وقوة ، وهل كان الشعر بموازينته وقوافيه إلا ضربا من الموسيقا يراد به إلهاب العاطفة والحاسة ، كما يراد بالطبول والمزامير تتقدم الجيوش الزاحفة إلى ميادين الوغى ، إذ كما نار الحماسة فيهم ، وإثارة العاطفة إلى أقصى حدودها ، حتى تفيض بها قلوبهم فيندفعوا إلى حياض الموت باسمين .

وليست اللغات الراقية للآمم مجردة من الموسيقا فكل لغة موسيقاها . فلم عابوا علينا ولم يعيبوا عليهم ؟ وإن كانوا قد عابوا علينا احتفالنا بالموسيقا في أدبنا فذلك لطواعية لغتنا وثروتها اللفظية ، وابتهاج أفتدتنا الشرقية بهذا الضرب من الجمال ، واللغة مقياس الذوق لكل أمة ، ومرآة تطع عليها صور أمزجتها وأهوائها ، ولا مناص لها أن تحيط بخلجات أفكارهم وترصد نزوات أدواقها وعواطفها وإلا لم يكتب لها الخلود .

العصفور : جميل منك يا صديقي أن تثير هذا البحث فإني إليه جد مرتاح

لطرفته عندي ، وأرجو أن تزيدني بيانا توضح لي به الطريق إلى صوغ الكلام
موسيقيا وتقدر لي تأثير الموسيقى في الفكرة الأدبية قوة أو ضعفا ، فذلك
الطلب لا علم لي به قبل اليوم -

أنا : ليس للموسيقا في الأدب طريق معبد مألوف إذا سلكه الكاتب أو
الشاعر انتهى به إلى كلام موسيقى ضربة لازب ، فليس لها مقاييس ولا حدود
تضبطها ، وإنما هي أمر وجداني مرجعه الذوق الناضج والأذن الموسيقية النفاذة .
ويعين طول المراتبة والدربة الطويلة على تربية هذا الذوق الأدبي ، ويستعان
على الموسيقى في الأدب بأمور عامة تقريبية كالوزن والقافية في الشعر ، والفواصل
وتقارب الفقر في السجع وزيادة بعض الحروف أو إبدالها بما هو أخف منها ،
وقد يخالف بالكلمة أحيانا قياسها للتلائم كلمة أخرى في الأسلوب ، ولحروف
الكلمة الواحدة أوضاع خاصة من هذه الأوضاع ما يكون موسيقى التأليف
والترتيب ، ومنها ما يحدث تنافرا ونبوا . وهذا الشأن تراه في الكلمة تضمها
إلى الأخرى ، فأحيانا ترى وضعها موسيقيا عاليا يأتيك عفوا عن طريق الحظ
والتوفيق ، وأنت لا تعرف السبيل إلى اقتناصه ، كالصيد ترزقه وأنت على شاطئ
البحر فتهش له ، وأحيانا ترى وضعها جافيا لا يرتاح إليه أذنك كأرذل ما يخرج
إليك في الصيد من البحر ، وبحسب ترتيب حروف الكلمة في ذاتها وترتيبها مع
غيرها ينشأ جمال الأسلوب أو قيمته ، ومدار الأمر في موسيقية العبارة راجع
إلى ضبط التمججات الصوتية أو تقريبها والملاءمة بينها على قدر الإمكان ، وليس
لذلك قانون ولا نظام معروف ، ولا بأس هنا بإيراد كلمة للاستاذ « لاسل آبر
كرمي » في هذا المرقف من كتابه قواعد النقد الأدبي المترجم إلى العربية ،
لتلقى وضحا على ما يراد من الموسيقية اللفظية وتأثيرها في العاطفة قال : « إن
الكلمات تشتمل على شيئين : معان وأصوات . والمعنى والصوت كلاهما مرتبط
بالآخر ارتباطا لا يقبل التفريق . ولكن كلا منهما قابل لأن تنظر فيه على حدة

وكل منهما يمكن تقسيمه إلى قسمين فمن حيث المعنى نرى أولا أن لكل جملة معناها بحسب تركيبها المنطبق على قواعد النحو والصرف وهذا هو هيكل الجملة الذى تتمثل فيه الفكرة المجردة التى يراد وصفها .

ولكن هناك ناحية أخرى للمعاني الالفاظ . ذلك أن كل كلمة ذات معنى قد يكون لها بمفردها — مستقلة عن نحو الجملة وصرفها — تأثير خاص فى الخيال يتوقف على القرائن والموضوع ، فإن معنى كلمة من الكلمات ليس بالامر اليسير السهل . والمعنى الذى نجده فى معاجم اللغة ما هو إلا النواة التى يتجمع حولها طائفة من المعانى الثانوية . . .

كذلك نرى أن كل كلمة إنما يعبر عنها بوساطة أصوات حروف الكلمة ، ولكن من الممكن أن يكون لهذه الأصوات فوق هذا دلالاتها الخاصة بها ، فأمامنا أولا الأصوات المقطعية الخاصة بكل حرف ساكن أو متحرك فى كل كلمة من الكلمات ، وهذه يمكن ترتيبها على طراز خاص وتكرار بعض الأصوات أن يتألف منها ذلك النظام المسمى بالروى أو القافية . كذلك قد يراعى فى الالفاظ ناحية أدق وأخفى من هذه ، وهى أن يكون بين أصواتها وبين الموضوع ملاءمة بحيث يكون فيها تقليد للشيء الموصوف أو وحي إلى الخاطر يصعب تحديده ، ولكنه محسوس . وهذه الخاصية للكلمات ينظر فيها إلى كل كلمة على حدة وتأثير أصواتها . ولكن هناك ناحية أخرى لتأثير الكلمات ، وهى التى ينظر فيها للكلمات متتالية متعاقبة . وهذا هو ما يعبر عنه بالانسجام أو موسيقا اللفظ « rythm » فهنا لا ينظر إلى الأصوات المقطعية ونوعها بل إلى تموجات الأصوات وإلى مقدارها فى عدة جمل . وهذا الاختلاف فى المقدار قد يكون راجعا إلى اختلاف فى قوة الصوت وضعفه أو فى طوله وقصره أو فى ارتفاعه وانخفاضه . والتموجات الموسيقية عبارة عن تعاقب كل هذه الاختلافات الصوتية أو بعضها بطريقة جلية واضحة .

وهذه الموسيقى اللفظية هي بلا شك أهم وسائل الانتفاع بالأصوات في فن الأدب. لأن هذا الانسجام هو أكبر عامل في الإيحاء بذلك الجزء من العاطفة أو الشعور .

وفي هذا الحديث ترى إشارة إلى الموسيقى في الكلمة وفي الأسلوب، ولا نجد فيه نظاما معينا ولا مقاييس محدودة للموسيقا كما قلنا . وإنما هو كلام عام لأن الموسيقى اللفظية في الأدب في كل اللغات ليست مما يحد بأنظمة ومقاييس هندسية كالموسيقا الغنائية .

ويتضح من هذا الكلام أيضا أن الموسيقى أكبر عامل في إيقاظ العاطفة والشعور .

وعندى أن الموسيقى اللفظية أكبر عون للفكرة الأدبية على الوضوح والتأثير في الالفظة، فهي جمال يزيد لها قوة كالصورة الزيتية ذات الألوان المؤتلفة تراها فتعجب بها وترتاح إليها، ولو اقتصر فيها على الخطوط الأولى الساذجة وحرمت تلك الألوان الفاتحة ما كان لها ذلك التأثير .

ولقد يعلو الفيلسوف الانجليزى العظيم كارليل إلى أفق أسمى في فهم الموسيقى الأدبية؛ إذ يراها في صور مختلفة مما يحيط به، ويميل إلى أنها تقع في جملة شريفة المعنى وهو بحث طريف من الخير أن نورده باختصار؛ ليكون فيه متعة للقارئ، وبصر بألوان جديدة في الموسيقى الأدبية قال: «أما أنا فإني أجد معنى جما في التعريف القديم للشعر . وهو أنه الكلام الموزون المودع شيئا من الموسيقى حتى هو ضرب من الغناء - - وحقا لو اضطرب الانسان إلى إعطاء تعريف للشعر لما كان متجاوزا ذلك التعريف القديم .

فإذا كان نظمك موسيقيا لافى اللفظ فقط بل في اللب والمادة، وفي جميع الأفكار والمعاني والنظام والنسق فهو شعر وإلا فلا - والمعنى الموسيقى هو: ما إذا خرج من ذهن نغمة إلى لباب الشيء وأدرك مكنون سره، أعنى النغمة

الكافية في جوفه ، أعنى ما يستر في ضمير ذلك الشئ من موسيقا الالتلاف والوثام ..
ولقد يمكننا القول بأن لباب كل شئ موسيقى ، أعنى إذا بدا للناس بدا في
منطق موسيقى أى بدا في صوت الغناء . وإنى أرى معنى الغناء عويصا عميقا
إذ أين ذلك الذى يستطيع أن يصف لنا تأثير الغناء باللسان ؟ ، والغناء ضرب
من الكلام المستحيل النطق والمتناهى العمق الذى يذهب بنا إلى شواطئ المجهول
فتركنا ننظر برهة في ذلك البحر ...

ثم اذكروا أيضا أن كل كلام صادر عن انفعال فإنه يلبس بطبيعته ثوبا
موسيقيا .

بل أرى كلام الغضبان صوتا من الغناء ، وهكذا كل لباب وصميم وشئ
عميق فهو غناء . بل يظهر لى أن الغناء هو لبابنا الجوهرى . ثم يقول بعد ذلك
« وقد قال كولريج في بعض كتاباته : إن كل جملة موسيقية التركيب يجرى
في أثناء لفظها حلو النغم ، فلا بد أن تكون ذات معنى جليل شريف ؛ لأنه ما زال
أبدا بين الجسم والروح « اللفظ والمعنى » ألفة وشبه ، والشعر القديم الجيد
شعر هوميروس مثلا كله غناء ، بل كل شعر حر غناء ، وإن كل شعر لا يصلح
أن يتغنى به فما هو بشعر ، ولكنه قطعة نثر فصلت في لفظ طنان ، فيه عقوق
لقواعد النحو وأذى ومصاب على القراء » هذه النظرة العالية الفلسفية تسمو
بقارنها إلى معان أبعد مما يتبادر إلى الذهن من الموسيقى اللفظية ، وفيها نواح
جديدة عميقة النظر أوحى بها إلى هذا الفيلسوف فلسفته وروحه المتمزجة
بحب مظاهر الكون وأسراره - والذى لانقر كولريج عليه « أن كل جملة
موسيقية التركيب يجرى في أثناء لفظها حلو النغم فلا بد أن تكون ذات معنى
جليل شريف » فأحيانا نرى العبارة موسيقية ومعناها ضئيل . وقد استحسنوا
نسيج الآيات الآتية وما فيها من موسيقا لفظية ، وعدوا معناها سخيفا وهي :
ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالاركان من هو ماسح

وشدت على حذب المهاري رحالنا ولم ينظر الغادى الذى هو رائج
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح
ولقد امتاز شعر البارودى بالموسيقا اللفظية القوية ، وكثير من معانيه
قريب أو مسبوق إليه . وكان المعرى يقول فى شعر ابن هانىء الأندلسى
« ما أشبهه إلا برحى تطحن قرونا » ومعنى هذا أن أساليبه فيها خامة وقوة
جرس موسيقية ، ولكن معانيه غير رائعة كما يرى المعرى ، وإذا كان المعرى
قد أخذ على ابن هانىء ضعف معانيه وأقر له بموسيقا اللفظ فما أحرانا فى هذا
الموقف أن نقر للمعرى بقوة معانيه فى شعره وضعف المرسى فى كثير من أفواله .
ومن مقال للشاعر الكبير بول فاليرى تضرع المجمع الفرنسى ، عربيه الأديب
عبد الرحمن صدقي « والكلام يمكن أن يكون منطقيا عامرا بالمعنى ، ولكنه خلو
من الإيقاع خلو من الوزن ، وقد يكون عذب الورد على السمع وهو سخف
ولغو ، وقد يكون واضحا وفارغا ، غامضا ولذيذا »

ويجمل بى فى هذا المقام أن أذكر لك شيئا بهذا الموضوع من مقال
للاستاذ أحمد أمين ، يزعم فيه أن الأدب الجاهلى جناية على الأدب العربى ،
ولا يعيننا التعرض لهذا رأى فى جميع نواحيه فلندعه فى تطرفه وغرابته بدعا
بين الآراء ، ولننقل رأى الأستاذ فيما يمس الموسيقى فى الأدب العربى ، فقد قال
فى توضيح الآثار السيئة التى لحقت الأدب العربى من الأدب الجاهلى فى الشكل :
« فن ناحية الشكل قيد الشعر بقيود الوزن والقافية كما رسمها الشعر الجاهلى ،
فالبحور الجاهلية هى البحور التى سار عليها الشعر العربى كله إلى الآن إلا أشياء
قليلة ، وكذلك القافية ، مع أن البحور ليست إلا أوزانا ، والأوزان ليست
موسيقا ، والموسيقا تختلف باختلاف العصور ، فكما أن الغناء الجاهلى لا يتناسب ،
فكذلك كان يجب أن تكون الأوزان والقافية مسايرة للزمن ، وأن تحكم كل
أمة عربية أذنها الموسيقية فى الأوزان الشعرية التى تناسبها والتى لا تناسبها ،

سواء وافق ذلك الأوزان الجاهلية وقرافيتها أو خالفها، أما أن نخضع آذاننا للأوزان الجاهلية والثقافة الجاهلية فحسب، فنوع من السجن لا يليق بأمة راقية تتحرر من القيود الثقيلة، وقد جنى هذا القيد علينا جنایات كبرى تتصل بالمرسوع، فالتقيد بالثقافة حرمانا من الملاحم الطويلة، وحرمانا من القصص الطويلة الممتعة؛ لأن اللغة مهما غنيت بالمتراذفات لا تستطيع أن تقدم للشاعر مئات الكلمات على روى واحد وعلى حرف واحد، خصوصا بعد أن قيدوا الشاعر أيضا بالأبعاد الكلمة إلا على مسافات بعيدة.

وقد يكون من البر بلغتنا والوفاء لها قبل البدء في نقد هذه الفكرة أن نعود إلى بعض العبارات فضعها بين قوسين مثل « سواء وافق ذلك الأوزان الجاهلية وقرافيتها أو خالفها » و « جنایات كبرى » و « على روى واحد وعلى حرف واحد » أما الفكرة فإننا نراها غير موفقة في نواح كثيرة، فالموسيقا التي تجرى عليها البحور العربية لا يقدح في حسننها وملاءمتها قدمها، فليس كل قديم غير ملائم، وبقاؤها على قدمها إلى الآن ومرور دهر طويل عليها، دليل على صلاحيتها وملاءمتها للأذواق، وإلا ما كتب لها هذا البقاء الطويل — والدعوة إلى أن تحكم كل أمة أذنها الموسيقية في الأوزان الشعرية التي تناسبها والتي لاتناسبها، فتح لباب واسع من الفرقة والاختلاف في الذوق، وقضاء على صلة محكمة تربط بين الأذان الشرقية العربية جميعا، فتطرب كل أمة وتهتز، وتجيش صدورها بالأمانى والأحلام العذبة، كلما شدا على دوحة العربية شاد في آفاق الأرض بهذا الطراز من الموسيقا. وبهذا وبغيره نحفظ للوحدة العربية كيانها. وإذا أجبنا لأنفسنا أن نبدل في موسيقا الشعر وهي مظهر من مظاهر لغتنا لأن آذاننا لها حكمها في وقتها، فلماذا لا نبغي غدا تغيير قواعد الإعراب والتحرر منها لأن حناجرنا في وقتها لها حكمها أيضا وهي غير حناجر العرب الذين ارتضوا هذا الإعراب؟ إن المسألة ليست مسألة منطق وترتيب نتائج

لنقدم على هدم أمر من الأمور العظيمة ، بل علينا أن نتدبر الحقائق مجردة من زخرف المنطق وتعرف آثارها السيئة في رفق وهوادة فإن ذلك بنا أجمل . ثم ما هو المقياس الذي يراه الأستاذ للموسيقا الشعرية الجديدة ؟ ألا يرى معنى أن فتح هذا الباب مدعاة إلى الخاط في الأوزان والفرضى فيها ، فيأتى كل دعى في الأدب بأوزان سخيفة ويتعصب لها ويناضل عنها ، فتعيش في حرب كلامية طاحنة تفسد علينا أذواقنا ، وتقضى على بقية التراث العربى الكريم . وبقينى أن هذا لا يرضى الأستاذ صاحب الدعوة ، فلندع أوزاننا كما هى ، فهى سر باح به الزمان ، فظل بقوته وخصبه صالحا لكل مكان .

أما الحملة على القافية وأنها حرمت الملاحم الطويلة فهذه الدعوة نصيها من الحق كنصيب سابقها ، فإن الملاحم لا يشترط فيها اتحاد القافية ، وأقرب دليل على صلاحية العربية لها الملاحمتان العظيمتان (العمرية والعلوية) اللتان صاغهما الشاعران العظيمان المرحومان حافظ وعبد المطلب ، فقد جعلنا لكل غرض فيهما قافية ، وبذلك فتحنا جديدا ، ومهدا سبيلا لكل من أراد الإحسان فى الملاحم ، فنحن لم نحرم الملاحم وأمثلتها بين أيدينا صارخة ، ولم تقصر قوافينا عنها — وفوق هذا فشطور الرجز مجال واسع للبلاحم وأمثالها وليس له غاية ، فقد درج شعراؤنا فى أراجيزهم الهائلة على النسيج من مشطور الرجز الكأبى العتاهية فى أرجوزته فى الزهيد وكابن المعتز وابن عبد ربه فى أرجوزتيهما التاريخيتين وهما معروفتان .

— ٢ —

العصفور : بارك الله فيك . لقد أرضيت الحق وقمت بالنصفة فى نقدك ، وأطلعنى على كثير معجب بما لم أكن أعلم . وأرجو أن تنال حظا من الراحة ، فقد عز علينا أن تجمع بين مشقتى السفر والبحث العلمى — ثم تقفنى على الغرض من حملات المجددين على القافية بإسهاب . فقد سمعت عن هذا الموضوع فيما مضى

كلأما يسرنى أن أرى له إيضاحا وتفصيلا .

أنا - لعلك تذكر أيها الطائر الأديب أننا أثرتنا هذا البحث في مقالنا الأول ، وقد ذكرت لك إذ ذاك إن أول من استحدث هذه الطريقة المرحوم الشاعر جميل صدقي الزهاوى . وأسمعتك شيئا من شعره على هذه الطريقة . وقد قويت الدعوة إلى هذا المذهب بعد ذلك ، ومال إليه المجددون ، ودعا إليه المجددون : إما فى قوة وصراحة ، وإما فى إيمان وتحفظ - وقام معارضون لهؤلاء الداعين ، فثار الجدل حول هذه الفكرة ولا تزال حجج الداعين إليها غير قوية ، على الرغم مما عرضه على الناس من صرر لهذا الرأى ، وتدور أدلتهم حول ضيق الشعر العربى بالتزام القافية وقصوره عن تصوير المعانى وصوغ الملاحم والقصص وقد تقدم فى هذا المقام دفع ما قالوا .

وقد صاغ الزهاوى أول قصيدة من هذا الطراز فى مستهل القرن العشرين ونشرتها له صحيفة المؤيد غير القصيدة التى سمعت بعض أبياتها وعرض بعض الكتاب قطعا من هذا النوع . منها قطعة مترجمة فى صورة نثرية مرة وصورة من الشعر المرسل مرة أخرى ، وهى من شعر شكسبير زعيم هذا الطراز من الشعر فى رواية عطيل . ولا بأس بأن أذكر لك قليلا من هذه القطعة فى حالتها النثرية والشعرية

النثر

ياجو : حسن السمعة للرجل والمرأة - ياسيدى العزيز - أئمن جوهرة من حلئ النفس . من يسرق كيس نقودى يسرق شيئا زريا كان لى وأصبح له ، وكان قبلنا لآلوف آخرين . أما الذى يسرق حسن سمعى فيختلس شيئا لا يغنيه ويجعلنى فقيرا جهد الفقر . . .

الشعر المرسل

ياجو: شرف الانسان أغلى سیدی
 من سواد القلب هذا يستوی
 فيه من كانوا ذكورا أو إناثا
 إنما من يسرق مالی إنما
 نال منى تأقها غير خطیر
 إنما المال متاع هین
 فلقـد كان معی ثم مضى
 لیدیـه بعد حین مثـلا
 كان قبل الآن عبد الـلوف
 إنما سالب عرضی نال ما
 لیس یغنیـه وقد أفقرنی

ولست أرى تعليلا عن صوغ هذه القطعة بهذه الطريقة من الشعر البادى
 لك في ضعفه وهزاله . وقد ذكر معنى هذه القطعة قول شاعرنا العربى حسان
 ابن ثابت رضى الله عنه :

أصون عرضى بمالى لا أدنسه . لا بـارك الله بعد العرض فى المال
 أحتال للمال إن أودى فأكسبه . ولست للعرض أن أودى بمحتال
 وعرض أيضا الأستاذ الكاتب قطعة أخرى ترجمة فى صورة نثرية
 وصورة شعر مرسل لقصة من وضع شكسبير تمثيل رثاء انطونيرس لقيصر،
 فلا داعى إلى إيراد شىء منها اكتفاء بما تقدم .

وظهرت كاتبة متحمسة لهذا المذهب من الشعر تدعو إليه فى صدق وقوة
 وعزيمة ، ونضرب صفحا عن نقاشها فلا سبيل إلى اقناعها كما يتبين من بعض
 أقوالها التى نعرضها عليك ، لتعرف الحكمة فى العدول عن معارضتها، ومقدار

ما ترمى إليه من تجديد في الشعر . قالت :

« والغريب أنه بينما تتناقش في الشعر المرسل يتناقش الأدباء الإمبريكون في الشعر الحديث الذي لا وزن له ولا قافية -- ليطمئن قرأني فسيقتي عمري في الدعوة إلى الشعر المرسل . فهل يتيسر لي أن أدعو إلى هذا الشعر الحديث الذي لا أستسيغه الآن ؟ ولكني لأعرف ، فقد أستسيغه غدا » وقد أبدت هذه الكاتبة دعوتها بنسج قصيدة لها على هذا النوع من الشعر عنوانها « ذوالفأس » ومن يدرى لعلها تدعو إلى شعر لا وزن له أيضا ، لأنها قد تستسيغ ذلك غدا كما تقول . ولندكر من قصيدتها قولها في المطلع :

متكئا على الفأس في انكسار منحني الظهر من الهموم
ينظر في الأرض بلا انتهاء فليس نحوها إلا المصير
وقولها في النهاية :

ياسادة العبيد والأراضى كيف لقاء الرب يوم الدين
يوم مثوله أمام الله بعد سكون الساعى والسنين
ونحن نضن أن نعرض لهذه القصيدة بوصف فليست تستحق شيئا من
العناية . وبذلك تعلم يا صديقي العصفور نشأة فكرة الشعر المرسل وتدرجها في
ظل الزمان ، فصاحبها الزهاوى ، وكل من كتب بعده داعيا إليها تبع له .
العصفور — لقد وضع الحق واستقامت الحجة ، وإذا كنت قد علمت
صاحب هذه الدعوة وموقف الداعين بعده منه — فقد علمت شيئا جديدا
أيضا خلاص إلى من ثابا الكلام : وهو أن هذه الدعوة وليدة المحاكاة للأدب
الغربي ، فإن المجددين لما وجدوا شعرا مرسلا لشكسبير وغيره من الشعراء
الغربيين ، أرادوا إحداث مثله في العربية ، وقد لمحت من حديثك أنهم يجدون
للأدباء الإمبريكيين شعرا غير مرزون كما يقولون . وأرى أن الدعوة إلى هذه
البدعة الحديثة ستجد لها أنصارا بين المجددين وحينئذ تقع الفوضى في الأدب
العربي لا قدر الله !!

والآن يا صديق أرجو أن تسمعنى فى ختام هذا البحث الطريف ، شيئاً من النثر والنظم يمثل إلى الموسيقى فى الأدب العربى ، فأكون لك من الشاكرين أنا — يسنرنى أن أجيب صديقى إلى ما طلب وإنى لسانق إليه من ذلك ما يرضيه . فمن ذلك قول الشريف الرضى وقد حلق شعره بنى فرأى فيه شيئا ، وموسيقاه قوية رنانة . استمع إليه إذ يقول :

لا يبعدن الله برد شبيهة ألقيته بنى ورحت سلبيا
شعر صحبت به الشباب غرائقا والعيش مخضر الجنب رطيا
بعد الثلاثين انقراض شبيهة عجا أميم لقد رأيت عجيا
فالיום أطلب الهوى متكلفا حصرا وألقى الغانيات مربيا
إما بكيت على الشباب فإنه قد كان عهدى بالشباب قريبا
لو كان يرجع ميت بتفجع وجوى شفتقت على الشباب جريبا
ولئن حننت إلى منى من بعدها فلقد دفنت بها الغداة حبيبا
ومن هذا النوع من قول البارودى فى حرب كريد

أخذ الكرى بمعاهد الأصفان وهفا السرى بأعنة الفرسان
والليل منشور الذوائب ضارب فوق المتالع والربا بجران
لا تستبين العين فى ظلماته إلا اشتعال أسنة الماران
نسرى به ما بين لجاة فتنة تسمو غواربها على الطوفان
فى كل مرباة وكل ثنية تهدار سامرة وعزف قيان
تستن عادية ويصهل أجرد وتصيح أجراس ويهتف عان
ويغاب أن يكون هذا النوع القوى الجرس من الموسيقى فى البحور الكامل والوافر والمتقارب ، ومن الموسيقى الهادئة الوداعة المتزنة قول الوزير ابن الزيات برثى زوجه وحال ابنه الصغير بعدها :

ألا من رأى الطفل المفارق أمه بعيد الكرى عيناه تنسكبان

رأى كل أم وابنها غير أمه بيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيدا في الفراش تجنه بلابل قلب دائم الحفنان
فلا تلجأني إن بكيت فأنما أداوى بهذا الدمع ماتريان
فهبني عزمت الصبر عنها لأنني جليد فن بالصبر لابن ثمان؟
ضعيف القوى لا يطلب الأجر حسبة ولا يأتسى بالناس في الحدان
فلم أر كالأقدار كيف تصبني ولا مثل هذا الدهر كيف رماني
أعني إن لم تسعد اليوم عبرتي فبئس إذا مافي غد تعدان
ويغلب أن يكون هذا النوع الهاديء الوقور المؤثر في البحر الطويل، ومن
الموسيقا الفاترة قول أبي العلاء المعري:

يغيني في الترب من هو كارهه إذا لم يغيني كريحه الروائح
ومن يتوق أن يجاور أعظما كأعظم تلك الهالكات الطرائح
ومن شر أخلاق الأنيس وفعلهم خوار النواحي والتدام الزوايح
وأصفح عن ذنب الصديق وغيره لسكناي بيت الحق بين الصفائح
وعندي أن سبب فتور الموسيقا قلة العناية باختيار الكلمات العذبة ذات
الجرس الحسن، فجاء الأسلوب عابسا، تموجاته الصوتية غير مؤلفة ولا منسجمة
كما ينبغي، ولنفس الشاعر وخفتها وظرفها في اقتباس المعاني والألفاظ، أثر
كبير في تصوير الموسيقا؛ وفرق بين ابن الزيات الوزير المرح الظريف الذي
تقلب في بيذة الكتاب وظرفهم والوزراء وترفهم، وبين أبي العلاء المعري العالم
رهين المحبسين وصاحب النفس المنقبضة المتبرمة بكل ما يحيط بها، ولهذا كله
وقعت الفارقة بين القطعتين مع أنهما من بحر واحد.

وأسمعك من النثر قطعتين إحداهما أقرب إلى الفطرة والثانية غارقة في
الصناعة، وكلاهما يفيض عذوبة وموسيقا: فالأولى من خطبة لداود بن علي ابن
عبد الله بن العباس حيث يقول:

«أيها الناس: الآن أفشعت حنادس الدنيا، وانكشفت غطاؤها، وأشرقت أرضها وسماؤها، وطلعت الشمس من مطلعها، وبرز القمر من مبرزه، وأخذ القوس باريها، وعاد السهم إلى منزعه، ورجع الحق إلى نصابه: في أهل بيت نبيكم أهل الرأفة والرحمة بكم والعطف عليكم.

أيها الناس: إنا والله ما خرجنا في طلب هذا الأمر - كثر لجينا ولا عقيانا، ولا نحفر نهرًا ولا نبني قصرًا، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا، والغضب لبني عمنا وما كثرنا من أموركم وبهظنا من شؤونكم...»

والثانية لزعيم كتاب الصناعة الأستاذ ابن العميد في خطاب خرج على الدولة يهدده حينًا ويتألفه حينًا، فأنصت إليه تر العجب من أسلوبه الرائع حيث يقول:

«لا جرم أنى وقفت بين ميل إليك، وميل عليك، أقدم رجلا لصدمك وأوخر أخرى عن قصدك، وأبسط يداً لاصطلامك واجتياحك، وأننى ثانية لاستيفائك واستصلاحك، وأتوقف عن امثال بعض المأمور فيك، ضنا بالنعمة عندك، ومناقسة في الصنعة لديك، وتأميلًا لقيمتك وانصرافك، ورجاء لمراجعةك وانعطافك، فقد يغرب العقل ثم يثوب، ويعزب اللب ثم يثوب، ويذهب الحزم ثم يعود، ويفسد العزم ثم يصلح، ويضاع الرأي ثم يستدرك، ويسكر المرء ثم يصحو، ويكدر الماء ثم يصفو، وكل ضيقة إلى رخاء، وكل غمرة فإلى انجلاء...»

العصفور: إن سرورى هذا اليوم لعظيم بما أهديت إلى من ألوان الحديث الموفق فجزاك الله عنى خير الجزاء، وإنى لمستودعك الله وعائد إلى أهلى وخالانى وأنا موقر بالطرف القيمة. وكنا إذ ذاك فى وقت الأصيل والليلة المقبلة من الليالى القمرية، فما هى إلا لمحّة البصر حتى اضطرب اضطرابه سريعة، وقفز من نافذة القطار تاركًا وراءه صدى للحن جميل قرت عذوبته فى أذنى وقتا طويلا.

عبد اللطيف المغربي